الملحق

العدد ٥٧٠
الأحد ٩ شباط ٢٠٠٣

جاد الحاج

ترجمة رائد خيرالله

الهجرة الأخيرة

مقطع من رواية

دعتني جيني الى العشاء ليلة يذهب ابنها مايلز لينام عند صديقه جيكوب. "هل يمكنك تحضير البقول"، قالت، "اغسلها فقط وقطّعها وأنا اتولى الباقي حين انزل في السابعة بعد موعد آخر زبائني. سأترك المفتاح لك تحت ممسحة المدخل".

ناولني آرام الباقة جاهزة من شباك السيارة وتمنى لي حظاً سعيداً مع غمزة شريرة، مبسوطاً لأني عدت الى شراء الزهور منه بعد غياب. الا انه اصاب ولم يصب. اذ كانت جيني تعشق الزهور. وكان للزهور وقع رائع عليها. عيناها تتسعان لمرآى الباقة، تنفرج شفتاها، تأخذ نفساً عميقاً وتتنهد وهي تمد ذراعيها لاستقبالها. وحين تمشي بها يبدو كأن قامتها المستقيمة كالحربة لانت وتحرك اسفلها مثل عارضة ازياء. وسرعان ما بات ذلك المشهد ادماناً لي، فما عدت قادراً على وقف سيل الباقات. لكن الشهور المقبلة واجهتني بصعوبة مادية جعلت شراء باقات آرام مستحيلة، فبدأت استعيض عنها بباقات اقل سفسطة من سوق بورتوبيللو كل سبت. اما اذا اجبرتني ظروف العمل على السفر فكان لا بد لي من توصية آرام بايصال الباقة الى منزل جيني. "الباقة الصامتة" كان يدعوها لأني رفضت دائماً ارفاق بطاقة مع باقاتي، فما تقوله الزهور لا تضاهيه كلمات. وكنت اصاب بقرصة حسد من حامل الزهور الى بابها لأني لست هناك كي اراها والباقة معاً.

وخيّل اليّ وأنا اقطع البقول ان بؤس الشهور الماضية أخذ في الافول. كانت السنة في اولها وكنت اشعر اني جديد. بل راودني الغناء حين انتبهت الى اناقة المائدة كما اعدتها جيني مع شمعتين وزجاجة توللانا (نبيذ احمر اوسترالي) معقودة بشريطة حمراء. قلقي المزمن توارى. وبدأت اشعر اني في بيتي وأنا ارتب مطبخ جيني، افرغت غسالة الصحون الكهربائية وتلذذت بالبحث عن مطارح الاشياء. ترتيبها يشبه اسلوب الدمى الروسية: الاكبر يحتوي الاصغر. لجهة ملء المساحة بدا ذلك حكيماً لكن كيف تسير الامور عملياً، لا ادري. مثلاً رزمة كبيرة من قصعات الحلويات غطست في رزمة اقل، لكنها بالطبع اوسع، من صحون الحساء. ماذا يحصل، قلت لحضور جيني الغائب، لو اننا سنتناول الحساء قبل الحلويات؟ أليس هذا طبيعياً.

فتحت بقية الخزائن وسجلت مدى توضيبها. الاكواب على رف قريب من المدخل سهلة التناول. رف النبيذ قربها معظم زجاجاته "روزيه". انها تجاملني اذ تشرب احمر، كما فعلت في المطعم التايلاندي. ولديها كمية هائلة من الفضيات، ثلاثة جوارير، كافية لمطعم. ليست تحب الاختصار مثلي، ولا فوضوية مثل كلير. ففي مطبخ كلير يمكنك بسهولة ان تضع ملحاً بدل السكر، لئلا نذكر البحث عبثاً عن كل شيء والرغبة برمي نصف القصبة في القمامة. عندما كنت اطبخ في مطبخ كلير كانت تبقى برّا. المرة الوحيدة ساعدتني عندما كنا في مطبخ كوخ عمتها في فينانسو. كان المطبخ ضيقاً حتى لأثنين، فوقفنا ظهراً الى ظهر. هي تدق الثوم وأنا اخلط اللحم المفروم بالبرغل والبهارات. اشتغلنا جيداً هكذا. تمتعت بسطح الكبة في الصينية، كما تمتعت بتذوقها لاحقاً مع كلير وسلطة الخيار واللبن بالثوم. وكانت كلير تعشق ايضاً ما كانت تسمّيه بالبساطة السحرية للتبولة: برغل، بصل، بقدونس، حامض، ملح وبهار. ودهشت لدقتي في فرم التبولة "لكن لا تجرح اصابعك، انها لي".

كانت عمة كلير تمضي الصيف بعيداً وتركت لنا حرية التصرف بكوخها. الفرن قريب، وقربه دكانان، ثم حقول منطقة فاندي المزدحمة بالاخضر الغامق والاصفر المضيء. وكان من الطبيعي ان نحتسي كأس خمر ابيض مع فطور الصباح وان يكون كل عشاء احتفالاً. بعده تشعل كلير نار المدفأة وتستلقي قربها. ألسنة اللهب الوليدة تتراقص على وجهها. وعلى فمها ابتسامة هاربة. رأيت وميض السعادة في عينيها وكان دفء نظرتها يشع في داخلي.

في اليوم التالي اخذتني الى المدرسة والبيت حيث ولدت. يدها ربتت على الجدران المرممة حديثاً وبدا كأن الحجار القديمة كانت تهمس ليديها، "هنا، في هذه الغرفة، كان والدي يستقبل الزائرين كل خميس. كان الخميس يوم عطلة آنذاك وكان ابي مؤتمناً على مالية فينانسو والقرى المجاورة. وثق به الفلاحون بثرواتهم. ربما لأنه كان مدرساً".

الذكرى الاكثر غبطة من طفولتها كانت عيد العنصرة. الزنابق الزرقاء والشراشف البيضاء المتدلية من النوافذ خلال الزياح وطبع قبلة على خاتم المطران.

"هل كنت عفريتة وأنت صغيرة؟"، سألتها وقرصت اذنها.

"العفرتة الوحيدة التي اذكرها انني حاولت ان ابول واقفة، مثل الصبيان. كنت اذهب الى مراحيضهم في الليل، تلك كانت رعشتي الاولى".

ضحكت. "اتخيل صفاً من الفتيات يحاولن الشيء نفسه". ضحكت معي – "ازعر!". وأكملت: "عدا العيد كانت الحياة مضجرة، لا شيء سوى المدرسة، الكنيسة، الفروض، والشغل المنزلي، ومن وقت الى آخر التلصص على العشاق في غابة فونتونيل. الشخصية الخارجة عن المألوف التي اذكرها هي "مدام ٥٠ فرنكاً" شقراء جميلة قيل انها "دربت" صبيان القرية على الرجولة بخمسين فرنكاً. كنت اراقبها على دراجتها الهوائية مرة كل شهر اذ تأتي الى السوق في ساحة الاكاسيا – في المناسبة لدينا شجرة ارز لبنانية اصيلة هناك، اما المدام فقد حاول احدهم ذات يوم ان يحرق بيتها. رأيت الستائر تشتعل لكني خفت وعدت الى سريري. لم يحصل شيء كثير، مع ذلك لمت نفسي لاحقاً لأني لم اتدخل لاطفاء الحريق".

فرحت كلير لأني احببت فينانسو ولم اجدها مضجرة. ربما بسبب حنيني الى مسقط رأسي لم استوعب تماماً عدم تعلقها بقريتها.

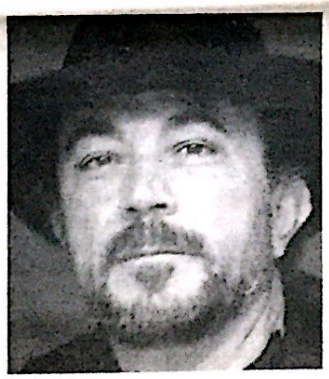

بالنسبة اليّ كان لفينانسو صفة مميزة. حساسية مموهة. يختلط في روحها التصلب الكاثوليكي باليسار الصلب في تناقض واضح مع بقية المنطقة، مما كان يتحدى في نظري فراغ الحاضر السياسي. ام كنت ارى ضيعة مضجرة في حلة بهية بسبب حبي لكلير؟

بعد ظهر ذلك اليوم غامرنا بدخول تخبئة العمة بحثاً عن "نووا"، النبيذ الاسطوري الذي جنّن كثيرين بعد الحرب العالمية الثانية. يومها تدخلت السلطة فمنعت تداوله وانتاجه وصادرت الكميات الموجودة. غير ان كثيرين خبأوا بعض الزجاجات. وتعتقد كلير ان عمتها منهم.

تسلقنا الادراج الملتصقة بجدار الكوخ وأدرنا المفتاح الضخم في القفل العتيق. رائحة الخل الاسير لفحتنا بقوة. دخلنا. "لنبحث عن زجاجة طويلة العنق"، همست كلير، "لكن كن حذراً. حرك الزجاجات كأنها بيض. لا نريد انهياراً. تفحصنا عشرات القناني شكلاً ومضموناً، بصمت، نتنفس رائحة التخمّر والرغبة. وفجأة وجدناها مختبئة بين زجاجتي كونياك. اسندنا دستة القناني بجسمينا وسحبناها على مهل. لون سائلها مائل الى الخضرة، فوار، لكن طعمه مخملي منكّه بقرصة حامضة. شربنا من الزجاجة وانتظرنا بداية المتعة. وسرعان ما سرى مفعوله نمالاً كبداية مخدّر الهلوسة. مدت كلير يديها نحو وجهي مثل منوّم مغناطيسي. شعرت حرارتهما تترقرق نزولاً الى عنقي. ثم اصطحبتني الى زاوية مقنطرة ضيقة، "كن هادئاً. تنفس. نعم. نعم". كنت هادئاً في الظاهر لكن في الداخل كنت اتوناً يغلي. على مهل بدأت كلير تطبع قبلات صغيرة حول فمي. اصبحت مسامي حقلاً لنقداتها. ومنعتني مرة بعد مرة من الحركة حتى اصبحت عائماً وشاهقاً بالرغبة. توقفنا وسط الاصداء – داخل شرنقة من المتع. وكان وصالنا عميقاً ابعد من الجسم والبشرة، كنت اشرب نهداتها وأنّاتها واشماً كل واحدة على ذاكرتي. دخلت انفاسها رئتي، وسبقت رعشتها صرخة بدائية.

كان عليّ ان ابرّد حرارة تلك الذكرى فخرجت من مطبخ جيني المرتب الى صالونها الاكثر ترتيباً ووقفت في وسطه تائهاً كأني في نموذج لبيت. تقدمت نحو المكتبة. رف كامل من روايات دانييل ستيل، ما تبقى اهتمامات متفرقة. بينها كتب حرفية كثيرة وموسوعة مقتضبة وعشر سنين من اعداد "ناشونال جيوغرافيك" وعدد من الكتب الملونة حول بلدان العالم، كتب مساج، ريفليكسولوجي، طب طبيعي، علوم، بستنة، طبخ – آه! – مطبخ الشرق الاوسط.

جلبت الكتاب الى الصوفا وترحرحت. وضعت جيني اشارات لبعض الوصفات معظمها سلطات.

"ماذا تقرأ؟"، قالت وهي تنزل السلالم.

رفعت الكتاب نحوها: "يبدو انك لا تحبين الطبخ. السلطات وحدها تعنيك؟".

"احاول تفادي الزيوت والسمن – مسألة بدانة".

"ماذا ستطبخين الليلة؟".

"صيني".

"اعرف، لكن ماذا؟".

"سمها اقتباساً".

تعانقنا بلياقة طيبة ودخلنا المطبخ لنقتبس. طبخنا. تحدثنا. سألتها إن كان هذا هو البيت نفسه الذي عاشت فيه مع اوتو.

"تقريباً". كان ملك الفرقة الموسيقية ولم يكن هكذا، بل مجرد مكان للتمارين. ثم بدأت الفرقة تتفكك وأنا وأوتو ننفصل. في تلك الاثناء ورثت بعض المال (...)

بعد العشاء نظفنا المائدة ووضعنا الصحون في الغسالة الكهربائية في صمت مسكون بالتوقعات. وفيما كانت جيني تسكب القهوة، وضعت ذراعيّ حولها وقبلت عنقها. طقطف احد الفناجين.

"انتبه انها حارة"، قالت جيني.

"انتبهت بما فيه الكفاية"، قلت وأدرتها نحوي.

جلسنا على الصوفا يداً بيد نحتسي القهوة. اصابعها القوية الناعمة زادت شعوري بالطمأنينة. كانت رفيقة الدرب في رحلة على شفير البدء، وكنت اشعر بشيء قدري، كأنه مزيج من حضور جيني وغياب كلير. الخلاص بات قريباً، فاتجهت نحوه بجناحين خافقين.

استغرقنا وقتاً طويلاً قبل ان نتخلى عن ملابسنا. لم نكن مستعجلين للقضاء على الرغبة باكراً. وباتت المداعبة التمهيدية المعروفة قبل المناومة رحلة اكتشاف مطولة لوهادنا ومغاورنا (...) العطفة بين عنقها وكتفها منطقة اشتعال خطرة تجعل بدنها كله يقشعر بالرعشات. ارنبة اذنها، ركبتها، لساننا والعناقات الصاخبة تعقبها لحظات سكون وخروج سكران من دوّامة الواقع. هكذا بقينا طويلاً نستشف ونكتشف ويطول بنا التمتع في انتظار الوصال، حتى بدأنا نحس كأنما تحوطنا هالة من ضوء. في الاثناء ولدت بيننا لغة عبر كل لمسة وكل كلمة عاشقة وكل همسة، الى ان غرقنا في الرغائب والتقينا عاريين على الارض. ولما اقتربت غلمتها انفرجت شفتاها وتقلب رأسها يميناً، ويساراً، ثم اصدرت نهدة طويلة وترقرق جسمها متهدلاً حولي فلاقيتها برعشتي ككف تلتقي كفاً في الظلام.

فتحت جيني عينيها وابتسمت وعانقتني بقوة. "ابق فيّ"، همست.

في غرفتها كان الفجر في انتظارنا، اغلقت الستائر وتغلغلت تحت الغطاء معها. كانت تضحك وتلهو (...) "ألم تتعب؟"، سألتني.

"كلا".

"على مهل"، همست ورفعت شعرها عن وجهها، "نعم، نعم"..."

جاءنا النوم بلا دعوة. غفوت وثديا جيني في يدي مثل كأسين من الخمر ■

من رواية "الهجرة الاخيرة" لجاد الحاج. صدرت في الانكليزية. ويوقع الكاتب روايته في ١٤ شباط في مكتبة فيرجين ميغاستور.

Scanned by CamScanner